المدن المختلطة: نحو فضاء مدينيّ مضادّ؟

حاييم يعكوبي*

يجري استخدام مصطلح "المدن المختلطة" على نحو واسع في إسرائيل لوصف حالة مدينيّة تشغل فيها مجتمعات محليّة عربيّة ويهوديّة منطقة نفوذ واحدة. على الرغم من ذلك، من شأن المراجعة النقديّة أن تضع علامات استفهام حول هذا المصطلح الذي يَستحضر في الأذهان مفردات الاندماج والعضويّة المشتركة في المجتمع، بينما الواقع يشكّل موضع خلاف وجدل (Yacobi, 2009). وعلى غرار حالات أخرى من مجتمعات المستوطنين، ثمّة فصل ذهنيّ وجغرافيّ واضح بين العرب واليهود في إسرائيل، وعليه فإن وجود الفضاءات المختلطة يشكّل أمرًا استثنائيًّا وغير طوعيّ، ونما كنتاج لمسارات تاريخيّة جرت فيها عمليّة تهويد عميقة للمناطق الإسرائيليّة، والمدن الفلسطينيّة السابقة من ضمنها.

تقع اللدّ على تخوم السهل الساحليّ الفلسطينيّ، وقد نمت وازدهرت على تقاطع طرق تتّجه من الشرق إلى الغرب (يافا- القدس)، ومن الجنوب إلى الشمال (مصر- سوريا- لبنان). في العام 1922، أفادت دائرة الإحصاء في حكم الانتداب البريطانيّ أنّ عدد سكّان اللدّ هو 8,103 نسمة، ينقسمون بين 7,103 مسلمين، وَ 926 مسيحيًّا، وَ 11 يهوديًّا. وكما بالنسبة لكثير من المدن وقرى فلسطينيّة أخرى، شكّل العام 1948 نقطة تحوّل فارقة في تاريخ اللدّ، حيث قامت قوّات الجيش الإسرائيليّ باحتلال المدينة التي كان من المفترض فيها أن تشكّل جزءًا من الدولة الفلسطينيّة بحسب خطّة التقسيم التي أقرّتها الأمم المتّحدة في العام 1948. خلال حملة داني، قُتل 250 فلسطينيًا في المدينة، وفَرّ منها 20,000 أو إنّهم أُجبروا على الرحيل. إلى ذلك، إنّ الحاجة إلى قوى عاملة في مجالات معيّنة شكّلت السبب الرئيسيّ في السماح لِـ 1,030 فلسطينيًّا في البقاء في المدينة (أرشيف جيش الدفاع الإسرائيليّ، 31-1860/50، تشرين الثاني، 1948).

السياسة الإسرائيليّة في الدولة الفتيّة تجاه الفلسطينيّين شملت نقل مئات العمّال من الجليل للعمل في كروم العنب المهجورة في اللدّ ومحيطها، وسكن هؤلاء في جيوب سكنيّة عربيّة ولم يُسمح لهم بالبقاء قي المدينة بعد انتهاء الموسم الزراعيّ (أرشيف بن غوريون 48/8/7-9837 بدون ذكر التاريخ؛ أرشيفات الجيش الإسرائيليّ 31-50/1850، تشرين الأوّل- تشرين الثاني، 1948). تُظهر الوثائق الأرشيفية أنّ قوّات الأمن تحكّمت تحكّمًا كاملاً بشؤون الفلسطينيّين، بما في ذلك تنقّلاتهم، وفي حقّهم بالعمل (أرشيف الجيش الإسرائيليّ 31-50/1860، بدون ذكر التاريخ؛ أرشيفات الجيش الإسرائيليّ 32-50/1860، بدون ذكر التاريخ). من المهمّ الإشارة هنا أنّ الحصول على هذه الحقوق فرض على الفلسطينيّين الأفراد تبنّي سلوكيّات سياسيّة مناسبة تجاه جهاز الحكم الإسرائيليّ. هذا التوجّه لقي تأييد الرأي العامّ الإسرائيليّ الذي بنى صورة سلبيّة للفلسطينيّين المتبقّين في البلاد. إلى ذلك، تَحَوّل الفلسطينيّون المتبقّون في اللدّ إلى مجموعة عاجزة؛ وتقوّضت ثقافتهم المدينيّة وهُويّتهم الجمعيّة وقيادتهم الجماعيّة. وكما أفادت السلطات الإسرائيليّة في تلك الفترة، تحوّل الفلسطينيّون إلى مجتمع مقطّع الأوصال، وعليه لم يعد يشكّل خطرًا على الهيمنة اليهوديّة (أرشيف الجيش الإسرائيليّ 31-50/1860، 1948).

في شهر نيسان من العام 1949، انتهت فترة الحكم العسكريّ الذي فُرض على اللدّ (أرشيف الجيش الإسرائيليّ 31-50/1860، حزيران، 1949). على الرغم من ذلك، بقي هناك إجماع واسع بشأن ضرورة مواصلة فرض الرقابة على السكّان الفلسطينيّين. في الفترة الأولى بعد الحرب، حاول لاجئون فلسطينيّون التسلّل والعودة إلى بيوتهم في اللدّ. ردُّ فعل السلطات تَمثّلَ في اتّخاذ خطوات عسكريّة ضدّهم، وفي توطين مكثّف للمهاجرين اليهود -والشرقيّين منهم على وجه الخصوص- في بيوتهم (أرشيف الجيش الإسرائيليّ 31-50/1860، كانون الثاني 1949؛ أرشيف الجيش الإسرائيليّ 31-50/1860، كانون الأوّل 1948).

لكن، على الرغم من عمليات التهويد المكثّفة التي رمت إلى السيطرة على التوازن العدديّ بين اليهود والفلسطينيّين، فإنّ عمليّة الهجرة الفلسطينيّة الداخليّةِ والنموَّ الطبيعيَّ في صفوفهم فرضا تحدّيًا على التوازن الإثنو- قوميّ الذي حاولت الدولة المحافظة عليه. بالإضافة إلى البناء غير الرسميّ للمساكن

والخدمات المدينيّة، شكّلت الاحتجاجات ضدّ هدم المنازل بديلاً لسياسة التخطيط الحكوميّة.

البيانات المشتقّة من التعداد السكّانيّ تُظهر أنّ نسبة السكّان الفلسطينيّين قد ارتفعت من 9% في العام 1950 إلى ما ينيف عن 20% في العام 2000، بينما تراجعت نسبة السكّان الإسرائيليّين في الفترة ذاتها من 91% إلى أقلّ من 80%. ومن أجل فهم هذه التغيّرات الديموغرافيّة، ثمّة أهمّيّة لمتابعة الأحداث التاريخيّة التي تحدّت عمليّة التهويد، والتي بدت وكأنّها مُحْكَمة تمام الإحكام.

بالإضافة إلى الفلسطينيّين الذين بَقُوا في اللدّ بعد العام 1948، قامت موجات من المهجَّرين الفلسطينيّين الداخليّين من خارج المدينة بالاستقرار في المدينة بدءًا من خمسينيّات القرن الماضي. بقدومهم للسكن في اللدّ، أعاد هؤلاء تركيب بروفيل المدينة الاجتماعيّ، وخلقوا طبقات ديمغرافيّة أكثر تركيباً. إحدى المجموعات الأكثر فاعليّة في هذا المضمار تضمّ مهجَّرين داخليّين جرى توطينهم في اللدّ كجزء من اتّفاق مع السلطات الإسرائيليّة. خلال الستّينيّات، وكجزء من السياسة الرسميّة الإسرائيليّة، جرى توطين عائلات بدويّة في المنطقة الشماليّة من اللدّ، وتحديدًا في حيّ محطّة سكّة الحديد. هذه العائلات اندمجت في الاقتصاد الإسرائيليّ كأيادٍ عاملة رخيصة.

موقع اللدّ القريب من متروبولين تل أبيب زاد من جاذبيّتها بالنسبة لمزيد من المجموعات الفلسطينيّة، وقامت بعضها بإشغال منازل شاغرة ومهدومة جزئيًّا داخل المدينة على نحوٍ "غير قانونيّ". قامت السلطات الإسرائيليّة بتوطين مجموعة أخرى من الفلسطينيّين في اللدّ، وهي مجموعة "العملاء"[1] الفلسطينيّين من الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة، وهي المناطق التي احتلّتها إسرائيل في العام 1976.

شمل هذا التدفّق الديمغرافيّ في طيّاته توتّرات سياسيّة وثقافيّة واقتصاديّة تنعكس على مستوى الحيّز المكانيّ. تَعْرض المدينة نمطًا مبتورًا يُهيمن فيه الفلسطينيّون على منطقتين في اللدّ، وهما المنطقة الشماليّة والمنطقة الجنوبيّة. هذه المناطق تتميّز بالبناء "غير المرخّص" بحسب تعريف السلطات، إذ يسكن نحو 50% من السكّان الفلسطينيّين في المدينة في مَبانٍ "غير قانونيّة". مفهوم الفلسطينيّين لنشاطهم غير القانونيّ في مجال البناء يتناقض مع سياسة دولة إسرائيل، إذ يعتبر هؤلاء أنّهم بذلك يناضلون من أجل انتزاع حقوقهم في المسكن، على نحوٍ ما يصف الأمرَ أحدُ الفلسطينيّين في مقابلة

[1] هذه المجموعة تعاونت مع السلطات الأمنيّة الإسرائيليّة، ولذا تُعتبر عميلة في نظر الفلسطينيّين. نقلت السلطات الإسرائيليّة هذه العائلات من مدنها وقراها الأصليّة بسبب الخطر المحْدِق بحياة أفرادها، ووفّرت لها مساكن بديلة في المدينة.

أُجْرِيَتْ معه:

" أنا عالق داخل دائرتين من التمييز. الأولى هي الدائرة القوميّة التي تتعامل معي على أنّي "مشكلة". أمّا الثانية، فهي الدائرة البلديّة؛ وهنا الوضع أسوأ لكونه يؤثّر على حياتي اليوميّة- التمييز على هذا المستوى شامل وعميق. حقوقي الأساسيّة منتهَكة- حقّي في المسكن، وحقّي أن يتوافر لأبنائي تعليم لائق. هذه الخدمات تُقدَّم على المستوى البلديّ، ونحن نناضل من أجل الحصول عليها (أ.م، اتّصال شخصيّ، تشرين الثاني، 2000).

التحكّم الديمغرافيّ بالمدينة هو ما يشكّل المنطلق لموجة التهويد الأخيرة في اللدّ والتي بدأت في أواخر التسعينيّات، وعلى وجه التحديد مع وصول المهاجرين من دول الاتّحاد السوفييتيّ السابق. هؤلاء يشكّلون الآن 25% من المجموع الكلّيّ للسكّان في المدينة (Yacobi, 2009). يعرض تقرير أعدّته البلديّة مسألة الديناميكيّة الديمغرافيّة كقضيّة مصيريّة، ويدعو إلى "الدفاع" عن المدينة من خطر فقدان السيطرة اليهوديّة (2000).

السياق المدينيّ "المختلط" في إسرائيل يعرض "سلسلة مزدوجة" من التمييز ضدّ المواطنين الفلسطينيّين في دولة تعرّف نفسها كيهوديّة، وعليه فهي تقوم برصد الموارد تبعًا لتراتبيّة إثنيّة. يعاني الفلسطينيّون المزيد من التمييز في مدينة تصرّح بأنّها "مختلطة"، لكنّها تقوم في الوقت ذاته بتجاهل احتياجات سكّانها العرب التخطيطيّة وهُويّتهم. هذا المنطق يتحكّم بسياسة التخطيط المدينيّة، وبتدفّق رؤوس الأموال، وبالإنتاج الثقافيّ وبأنساق الهندسة الديمغرافيّة.

على الرغم من ذلك، فإنّ المشهد المدينيّ في اللدّ لم يُرسَم عَبْر السنين فقط من خلال سياسات التخطيط الموجَّهة من الأعلى نحو الأسفل، بل كذلك من خلال مبادرات من الأسفل نحو الأعلى، تمثّلت في البناء المكثّف غير الرسميّ للمساكن والخدمات من قِبَل المجتمع المحلّيّ الفلسطينيّ في المدينة. التوتّر السياسيّ- المكانيّ يقع في جوهر إضفاء المعنى والشعور بالانتماء والهُويّة في صفوف السكّان الفلسطينيّين.

تعيد مبادرات "الأسفل نحو الأعلى" التي تطلقها المجتمعات المحلّيّة، نحو التنظيم غير الرسميّ في التخطيط والبنْية التحتيّة والاحتجاجات ضدّ هدم المنازل، أو الهجرة الداخليّة المتواصلة للفلسطينيّين من يافا (بسبب ارتفاع أسعار المساكن)، تعيد رسمَ شكل المدينة ووظيفتها ومعناها، وتفتح إمكانيّة خلق فضاء مدينيّ مضادّ. من خلال عمليّة نشوء تاريخيّة تولّدت بفعل التحوّلات الديموغرافيّة لمدينة اللدّ، يُمكن النظر إلى "المدينة المختلطة" كمدينة خضعت لحقبة مكثّفة من التهويد، وبالتالي خلقت فصلاً جغرافيًّا ومكانًا للتمييز ضدّ الفلسطينيّين.

*د. **حاييم يعكوبي** هو مهندس معماريّ متخصّص في الجغرافيا السياسيّة- المدينيّة، ويترأس برنامج اللقب الثاني في التصميم المدينيّ في معهد بتسالئيل. يتمحور عمله الأكاديميّ في الفضاء المدينيّ كوحدة ثقافيّة واجتماعيّة وسياسيّة.

مراجع

الإنجليزيّة

DeCerteau, M. (1984). *The Practice of Everyday Life.* Berkeley: University of California Press.

Lefebvre, H. (1999). *The Production of Space*. Oxford: Blackwell.

Yacobi, H. (2009). *The Jewish-Arab City: Spatio-Politics in a Mixed Community.* London: Routledge.

العبريّة

كامب، أدريانا (2000). الحدود كوجه الإله يانوس: الفضاء الجغرافيّ والوعي القوميّ في إسرائيل. تيئوريا فِبيكورت ("النظريّة والنقد")، 16، 13-44.

أراشيف

أرشيفات بن غوريون (بدون ذكر التاريخ)**.(9837-27/8/48) .**

أرشيف الجيش الإسرائيليّ (بدون ذكر التاريخ).(1860/50-31)

أرشيف الجيش الإسرائيليّ (بدون ذكر التاريخ).(1860/50-32)

أرشيف الجيش الإسرائيليّ (10 تشرين الأوّل، 1948). تقرير الحكم العسكريّ.(1860/50-31)

أرشيف الجيش الإسرائيليّ (10 تشرين الأوّل- 15 تشرين الثاني، 1948). تقرير الحكم العسكريّ (1860/50-31).

أرشيف الجيش الإسرائيليّ (23 كانون الأوّل، 1948) تقرير الحكم العسكريّ (1860/50-31)

أرشيف الجيش الإسرائيليّ (28 كانون الأول، 1948) تقرير الحكم العسكريّ (1860/50-31)

أرشيف الجيش الإسرائيليّ (11 كانون الثاني، 1949) تقرير الحكم العسكريّ(1860/50-31)

أرشيف الجيش الإسرائيليّ (23 حزيران، 1949) إنهاء الحكم العسكريّ في اللدّ والرملة ويافا.(1860/50-31)

تقرير بلديّة اللدّ. (2000).